



(قراءة في كتاب : (عبد الرحمان بن زيدان)

تأليف الأساتذة : عباس الجراري / سعيد بنسعيد العلوي /أحمد التوفيق

الناشر : مؤسسة أونا (ONA) ضمن سلسلة : أعلام المغرب.

ذ. حميد الصولبي*

صدر مؤخرا كتاب جديد (292 ص) ينضم إلى الاهتمام المتزايد (1) الذي بدأ ينبجس نوره بين أحضان الباحثين المشتغلين بتاريخ الفكر المغربي العربي الإسلامي ، يتعلق الأمر هنا بمؤلف (عبد الرحمان بن زيدان) وهو من إنجاز العلماء الباحثين : عباس الجراري / أحمد التوفيق / سعيد بنسعيد العلوي.

إن الكتابة عن الأعلام المغاربة الذين عاشوا في القرن 19 وبداية القرن العشرين ليست بالأمر السهل خاصة عن أولئك (2) الذين استطاعوا بفكرهم الثاقب المتنور أن يتركوا تأثيرهم القوي الفاعل على روح المجتمع مثل العلامة المؤرخ الفقيه مولاي عبد الرحمان بن زيدان. فالكتابة عن مثل هذا العلم الفذ تقتضي من المرء الإلمام العميق بفلسفة(3) تاريخ المغرب الحديث والإيمان الصادق بروح الوطنية المغربية ، وهذا بلاشك ما نؤمن به ونلمسه مجسدا من خلال الكتابات والإنتاجات الثقافية الهادفة عند أولئك الذين تفضلوا بالكتابة عن عبد الرحمان بن زيدان لمعرفتهم العميقة بمنزلة الرجل.

فهل يمكن أن نعتبر هنا أن الاهتمامات المتنوعة للأساتذة الأجلاء بين الأدب والفلسفة والتاريخ حافزا ودافعا للكشف عن شخصية عبد الرحمان بن زيدان الأديب والفيلسوف والمؤرخ ؟.

---

* أستاذ باحث بكلية الآداب ـــ مراكش.

الكتاب :{ عبد الرحمان (4) بن زيدان} الذي يعد بحق مفخرة للمكتبة المغربية المعاصرة ومتعة للباحثين المسكونين بتاريخ الفكر المغربي ينقسم إلى ثلاثة أقسام أساسية بالإضافة إلى تقديم موجز :

القسم الأول ، بعنوان : ابن زيدان ، حياته وإنتاجه : يتناوله بالدرس والبحث الباحث سعيد بنسعيد العلوي من خلال مبحثين : الأول : النشأة والتكوين ، الثاني : الكتابة الزيدانية.

القسم الثاني ، بعنوان : ابن زيدان المؤرخ: يتولاه بالبحث والتنقيب الباحث أحمد التوفيق في ضوء مبحثين : الأول : عمل ابن زيدان في التأريخ ، الثاني : مادة التاريخ عند ابن زيدان .

القسم الثالث : بعنوان : ابن زيدان الأديب : يهتم به بالتحليل والمعالجة الباحث عباس الجراري من خلال أربع مباحث : الأول : شعره ، الثاني : مسامراته ورسائله، الثالث: تأليفه ، الرابع : مكتبته وناديه : في تقديم موجز لهذا الكتاب الجماعي ، يشير العلامة عباس الجراري إلى أن الهدف من نشر هذا العمل وما سبقه من أعمال ضمن سلسلة"أعلام المغرب هو تعريف الباحثين وجمهور القراء بالعلماء الأعلام المغاربة الأفذاذ الذين نشروا الوعي ودافعوا عن الهوية الوطنية أمام تحديات كبرى كانت تعصف بالبلاد من هنا يأتي التعريف بابن زيدان بمثابة تأكيد وتذكير للباحثين المهتمين بأن يمنحوه العناية الدائمة التي يستحقها.

القسم الأول من هذا الكتاب الذي اختص به الأستاذ سعيد بنسعيد العلوي رسم له عنوانا هادفا : "ابن زيدان حياته وإنتاجه" قدم له بمعلومات نفيسة قلما يعثر عليها الباحث عن الترجمة العلمية لإبن زيدان \ فحسب الباحث بنسعيد \ ينحدر أصل ابن زيدان من " السلطان الأشهر مولاي إسماعيل بن الشريف ، فهو عبد الرحمان ابن محمد بن عبد الرحمان بن علي بن محمد بن عبد الملك بن زيدان بن إسماعيل. وهو من جهة الأم قريب الصلة بالأسرة العلوية المالكة، فوالدته حفيدة المولى عبد الرحمان بن هشام وابنة عم الملك الحسن الأول".

وهذا الأصل العميق المتصل بجذور الدولة العلوية جعل من ابن زيدان شعلة متيقظة دائمة التطلع والبحث عن عزة وهيبة الدولة المغربية عبر تاريخها الطويل. نقطة أخرى مهمة يشير إليها الباحث في هذا التقديم نعتبرها نحن بمثابة البرنامج أو المشروع الطموح للبحث في تاريخ الفكر المغربي الحديث والمعاصر، وهو ما فتئ يؤكد عليها في جميع كتاباته(5) إلى حدود مشاركته هنا في هذا التأليف الجماعي هو أنه ما تزال هناك "حقبة ثقافية خصبة من تاريخنا الثقافي والاجتماعي المعاصر(...) في حاجة إلى مزيد بحث وكبير عناية من الباحثين الذين يرومون تفسير الكثير من نواحي الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في المغرب المعاصر".

في المبحث الأول :"ابن زيدان النشأة والتكوين" يعرض الباحث إلى النظام التربوي والعلمي لابن زيدان الذي " ولد في مكناس سنة 1878 بقصر المحنشة" والذي تلقى تربية دينية دقيقة على نهج نظام الأمراء حفظ القرآن الكريم، يتحدث ابن زيدان عن نفسه :"وقد ختمت القرآن الكريم أيام السلطان المقدس مولاي الحسن فذهبت لجلالته بلوحي أطلب من علاه الختمة. وكان لوحي مكتوبا بخط مؤدبي من جهتيه ، فأخذ اللوح مني وقرأه ثم سألني عن الخط لمن هو ؟ فقلت : الفقيه. فقال هذا غش لا ينبغي ، فليتركـكم تكتبون ألواحكم بيدكم وسألومه ، ونفذ لي لدى حاجبه أحمد بن موسى (...) مايدفع للفقيه في الختمة غاب عني قدره".

وإلى جانب حفظه للقرآن فقد تلقى ابن زيدان دروسا في علوم اللغة العربية من قبل والده وعمه أولا ثم على يد ثلة من كبار علماء المدينة فهم \ حسب الباحث \ الشيخ القاضي محمد بن عبد السلام الطاهري والفقيه الشاعر محمد بن الحسين العرائشي...وقد أهله إدراكه لعلوم اللغة إلى نظم الشعر خاصة ما كان منه مديحا نبويا . وبباقي أقران الجيل ، فقد دخل ابن زيدان جامع القرويين وتلقى الإجازة على يد الكثير من علمائها منهم الشيخ أحمد بن الخياط الزكاري ومحمد بن جعفر الكتاني. ويشير الباحث سعيد بنسعيد العلوي إلى أن السياق العام الذي كانت عليه جامعة القرويين ومدينة فاس والذي يصادف عند ابن زيدان طلب العلم والتكوين كان سياقا يميزه السجال الفكري والتدافع السياسي والثقافي بين فئات العلماء وذلك بحكم رياح الإصلاحات التي بدأت تهب بقوتها على التراب المغربي من الشرق والغرب، هذه الإصلاحات الجديدة في الفكر والسلوك والنظام والسياسة والعقل لم تكن لتقبل من طرف جهات عديدة من المجتمع والنخبة رغم الدفاع المستميت الذي بدله بعض السلاطين المغاربة (الحسن الأول / عبد العزيز) المدركين للوقت قصد تحقيقها. ولما كان الشاب عبد الرحمان ابن زيدان شاهدا على هذه التحولات العميقة التي عرفها تاريخ المغرب المعاصر فمن الطبيعي أن تترك تأثيرها على شخصيته تأثيرا نستطيع أن نقول عنه أنه كان ميالا إلى التنوير(6) . ودليله أنه بعدما رجع إلى مكناس بعد إنهاء دروسه بالقرويين وأصبح يحمل لقب "نقيب الأشراف العلويين في مكناس وزرهون "اطلع بحكم انتمائه إلى الأسرة العلوية على كثير من الوثائق الثمينة والمعلومات النادرة" ولاشك أن هذا الإطلاع الواسع والشهود على مرحلة دقيقة، حرجة من تاريخ المغرب دولة ومجتمعا وفكرا قد عمل في نفسه فعلا قويا وكان المسؤول عن تكييف ذوقه ونظره ، وثقافته كلها بالتالي تكييفا حاسما" هذا بالإضافة إلى أن رحلته العلمية/الحجية مكنته من أن يلتقي بالكثير من العلماء ورواد الإصلاح، نذكر منهم ــ كما أورد ذلك الباحث العلوي ــ الشيخ المصري سليم البشري والشيخ عبد الستار الهندي وغيرهم .

وفي نقطة بعنوان : الخزانة الزيدانية: يشير الباحث الدكتور سعيد بنسعيد العلوي إلى أن مؤرخ الدولة العلوية ابن زيدان كان عاشقا لجمع الكتب ومولعا

بالسفر إليها في كل وقت ومكان إلى الحد الذي كانت عنده يقول ابن زيدان :"...أحب إلي من كل بستان ظريف وأعز عندي من كل جليس لطيف له في الفؤاد تأثير وتصريف".

هذه الكتب النفيسة التي وقعت عليها يده رحمه الله (مطبوعات / مخطوطات...) استطاع أن يؤسس من خلالها خزانة علمية فريدة لفتت الأنظار وفتنت الأبصار لاحتوائها على عريق المطبوعات في التاريخ المحلي والعربي وأجود المخطوطات الدفينة: ظهائر علوية ومخزنية وتقاييد النخبة المغربية من العلماء والتجار والأعيان وغيرهم ، خزانة يقول عنها المؤرخ الفقيه محمد المنوني ـ كما أورد نصه بنسعيد ـ :"ولا أذهب بعيدا إذ قلت إنها ـ فيما يرجع للتاريخ العلوي وتاريخ مكناس ـ الأولى من نوعها لما اشتملت عليه من الغرائب والنفائس في هذه المواضيع.."

إن المكتبة الزيدانية ـ بتقدير الباحث ـ لما اشتملت عليه من ذاكرة المغرب والإسلام، خاصة تلك المخطوطات الغميسة الوحيدة التي تحمل في طياتها الكلام عن قضايا سياسية ودولية وفكرية مغربية وعربية يمكن أن تستثمر من قبل الباحثين للكشف عن مخزون المغرب السياسي والثقافي. وبالتالي لفهم قضايا معاصرة في الحضارة والمجتمع. وإنه لعمل شاق وممتع لا يعرف قيمته إلا الذي خاض تجربته وأدرك مقاصده. وهناك سمة أخرى ـ يشير إليها الباحث ـ تميزت بها خزانة ابن زيدان ، في طريقة تنظيمها وترتيبها ، ولاشك أن لهذا التنظيم الفريد علاقة بالحياة العامة للرجل حيث كان النظام(7) هدفه في الأكل واللباس وفي مجالس العلم. إن الخزانة الزيدانية التي ضمت جميع أصناف العلوم من المخطوطات في الفلك والكمياء والطب والفلسفة والتاريخ والفقه ... تشتمل ـ بحسب الباحث ـ على " أربعة آلاف عنوان" وإذا كانت بعض هذه المخطوطات خاصة التي كانت من مجهودات ابن زيدان الفكرية قد ضاعت ـ يقول الباحث ـ فإنه من حسن حظ المكتبة الزيدانية أن جعل الله تعالى لها راعيا يرعاها هو جلالة الملك الحسن الثاني.

وفي نقطة بعنوان : المجالس الزيدانية : يذكر الباحث أن عبد الرحمان بن زيدان كان يتميز بصفة الكرم وهو أمر يكاد يجمع عليه كل زواره ومحبوه ومريدوه وفي هذا الصدد يورد الباحث نصا دالا لوالده رحمه الله عبد القادر بنسعيد العلوي يتحدث فيه عن شخصية الكرم والأدب عند ابن زيدان:"كرم حاتمي ومقابلة للواردين على قصده من جميع أنحاء الدنيا. لا يبحث عن زائر زاره ، ولو في كل يوم ، حتى لو جلس بالقصر ما يزيد على الشهر فسألته ذات يوم عن هذا الشخص فتبسم تبسمه المعهود المشوب بنكتة أو فائدة وأجابني : اسأله أنت إن أردت ، أما أنا فلا غرض لي في البحث عنه. فسألت الرجل فقال لي :"قد جئت عند هذا الشريف قبل مدة من السنين وأردت الآن تجديد زيارته لأستفيد. ولم يتذكر

رحمه الله هذا الرجل ولا وقت زيارته الأولى في حين أن هذا الرجل من أكبر علماء سوس وأدبائها". والجدير بالذكر هنا أن صفة الكرم عند مولاي الكبير"لم تكن ترتبط لديه بالغنى والثراء ، بل لقد " كان يعرف أحوالا من العسر والضيق المللي " ولكن " غريب أمره(يقول عبد القادر بنسعيد العلوي) أنني ما رأيت أحدا يغضب وتتقلب أحواله إذا قلت ضيوفه إلا هو ...". والمجلس الزيداني كان كذلك مجلس علم يلتقي فيه مع العلماء يطرحون أفكارهم والشعراء يتنافسون في إنشاد قصائدهم في شتى المجالات خاصة ما تعلق منها بالمديح النبوي.

في المبحث الثاني : الكتابة الزيدانية وموجهاتها : يقدم له الباحث العلوي بالكلام عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كان يعرفها المغرب بعد وفاة السلطان القوي مولاي الحسن الأول ، وإلى حدود فرض عقد الحماية في 30 مارس 1912 ، تلك الأوضاع التي كانت تصادف عند ابن زيدان فترة الشاب الناضج (34 سنة). ولا ريب أن سرد مجموعة من الأحداث الدقيقة(8) من طرف الباحث والمتعلقة بالذهنيات والمجتمع والشأن السياسي ، للحديث عن الكتابة الزيدانية الغرض الأساسي منه ــ كما يوضح ذلك صاحب الدراسة ــ هو وضع الإنتاجات العلمية لإبن زيدان في سياقها التاريخي ، على اعتبار أن الكتابة ،مهما يكن مجالها وميولاتها ونزاهتها ، لابد وأن ترتبط بشكل أو بآخر من قريب أو من بعيد بأوضاعها التي نشأت فيها وتفسر بها ومن خلالها. من هنا فإن كتابات ابن زيدان لم تكن لتشد عن هذه القاعدة العامة. إذن ، ففهم الكتابة عند ابن زيدان وإدراكها حق / الإدراك / يقتضي أولا فهم تلك الأوضاع على تباين أنواعها واختلاف درجات قوتها وتأثيرها على نفسية الرجل وفكره وهمومه الثقافية العامة.

ويرى الباحث الدارس أن التأمل العميق في مؤلفات مؤرخ الدولة العلوية يمكن من استخلاص ثلاث موجهات أساسية لتلك الكتابات الغزيرة.

وأولها : أن ابن زيدان أمام الضغوطات الأجنبية على بلاد المغرب الأقصى سعى لكي يجعل من كتاباته قضايا حية ينبه من خلالها القارئ ويؤكد له بالحجاج على أن الدولة المغربية عبر التاريخ كانت في "عز وصولة" عراقة وأصالة ، نظام وقوة، وأن ما أصابها من ضعف ووهن أيام الاستعمار لا يعدو وأن يكون حالات طارئة بسبب عوامل داخلية نتيجة الغفلة والفتنة وخارجية نتيجة الطمع الإمبريالي .

وبعبارة أخرى يمكن القول : أن كتابات ابن زيدان كانت تطمح إلى إعادة الاعتبار إلى الشخصية والدولة المغربية.

ثانيها : لما كانت الدولة المغربية ترفل في الهناءة والاطمئنان وتعيش في مناعة وهيبة في المراحل السابقة عن الاستعمار واقعا وحقيقة لا يكابر فيها أحد. كان شغل ابن زيدان الأساسي وهمه الذي يملك عليه طموحه وتطلعاته هو كيف يمكن أن نجعل من هذا التاريخ الخصب القوي المجيد دوافع وحوافز أمام أجيالنا الصاعدة للبناء وأمام الانطلاق نحو المستقبل دون أن يكون الاستعمار وأسبابه الداخلية

الطارئة عائقا أمام تقدم مجتمعنا وفي هذا السياق يتحفنا الباحث بنسعيد العلوي بنص لابن زيدان عميق الدلالة وجدير بالانتباه والتأمل:"...إن لك لمجدا عريقا وإن لك لعزا مكينا، وإنك كنت في يوم من الأيام علما شامخا تستعصي على من أرادك بسوء أو أذى. وإن أساسك لمتين لا يزال يغالب العصور والدهور فاجتهد في البناء عليه بناء قويا يطاول الدهور والعصور لتصل بين عملك وعمل سلفك الصالح الذي عبد لك الطريق وسوى لك السبيل لتتمشى على بينة ورشاد".

ثالثها : الموجه الثالث ـ كما يراه الباحث ـ الذي يساهم في بلورة الكتابة عند مؤرخ الدولة ، هو أن ابن زيدان كان يحث المغاربة للالتفاف نحو رمز وحدتهم وتجمعهم جلالة السلطان محمد الخامس رحمه الله لما كان يراه من مضايقة"السلطات الحمائية" التي كانت تهدف "إلى إخفاق صوته وإطفاء نوره سعيا نحو مسخ الشخصية المغربية وإذابتها" وذلك بمساندة جميع أعماله واختياراته وإحياء الذكريات الوطنية وإقامة الاحتفالات التي ترمز إلى تكريمه وتمجيده وفي ذلك كله دفاعا عن الدولة المغربية.

في عنوان : البيبليوغرافية الزيدانية : يعرض الباحث إلى قائمة مؤلفات المؤرخ الفقيه المطبوعة والمخطوطة ، ويؤكد أن مرجعه في هذا الشأن ومرجع جميع الدارسين هو المؤرخ العلامة محمد المنوني ،وعقب ذلك يدلي بثلاث ملاحظات على تلك القائمة : هي كالتالي :

* إن بعض مخطوطات مؤرخ المملكة أصبحت مفقودة قبل أن تنتقل المكتبة الزيدانية إلى الخزانة الحسنية بالقصر العامر بالرباط.

* بعض هذه المخطوطات قد تعرض بحكم عوامل الزمن إلى البتر فضلا عن كونها تحتاج إلى " إحكام الترتيب وإكمال الضبط".

* بعض هذه المخطوطات كان الأصل فيها عبارة عن محاضرات علمية معدودة الصفحات فتصبح عند ابن زيدان بعد التعديل والتفكير العميق تأخذ صفة المخطوط المؤلف كما هو الشأن بالنسبة لمخطوطة "العلائق السياسية للدولة العلوية" الذي سيعرف النور قريبا ـ بحسب الباحث ـ من قبل الأستاذ عبد اللطيف الشاذلي.

ويرى الباحث أن وقوفه عند المكتبة الزيدانية يصف ذخائرها ليس من أجل التحليل أو إصدار الأحكام وإنما بقصد "التنبيه إلى أمرين اثنين :

ـ أولا : أن "المؤلفات التاريخية الزيدانية مادة أولية لعمل المؤرخ الذي يتولى عمل التحليل والتقديم ويروم الفهم والتركيب ، وأحسب أن هذه الصفة(...) هي التي جعلت الباحثين المنشغلين بالتاريخ المغربي الحديث والمعاصر خاصة يكثرون الرجوع" إلى كتابات ابن زيدان الغزيرة والمتنوعة والثرية والتي احتوت على نصوص في الاجتماع والسياسة وعلوم الفقه، وعلى وثائق ومستندات وظهائر سلطانية ومخزنية قل نظيرها عند الآخرين ،و(9) فرادته في ذلك تكمن في انتمائه الأسري للدولة العلوية الذي جعله قريبا من القصر الملكي يلاحظ الأحداث

ويستقصي الوقائع همه في ذلك كله هو الدفاع والمنافحة عن شخصية الدولة المغربية والحرص على مجدها وإبراز معالمها الحضارية (وليس مستندنا) في ذلك (يقول ابن زيدان) مجرد السماع بل المشاهدة والعيان والحيازة للواجب لذلك من الصنف الأول ".

ـ ثانيا : الأمر التالي الذي يريد الباحث أن ينبه إليه القراء وهو يعرض أمامهم المدخرات العلمية لمؤرخ الدولة العلوية هو أن مولاي الكبير قد عرض في كتاباته التاريخية(العز والصولة في نظام الدولة) والإتحاف مثلا لدقائق الأمور المتعلقة بالملك داخل القصور الملكية يوميا : (نظام الأكل والشراب / المجالس العلمية / الاحتفالات والاستقبالات /...).

فالباحث يعتبر كتاب (العز والصولة) بمثابة "سجل حافل ودائرة معارف مرجعية فائقة الأهمية "في هذا الشأن .

في عنوان : ابن زيدان الفقيه : يذهب الباحث إلى أن نقيب الشرفاء العلويين بحاضرة مكناسة يعتبر فقيها أولا وأخيرا "بالمعنى الذي يعرف بها الفقيه في ثقافتنا الإسلامية حجته في ذلك كتابين اثنين لابن زيدان :أولهما:"قراضة العقيان في تحقيق استمرار أفراد من الكهانة لآخر الزمان" وثانيهما هو "تبيين وجوه الاختلال في مستند إعلان العدلية لثبوت رؤية الهلال". ولتوضيح صفة ولقب الفقيه لدى ابن زيدان يسعى الباحث إلى تفصيل القول في مضامين الكتابين ـ إذ تعتبر مسألة التنويم والكهانة موضوع الكتاب الأول يعالجها ابن زيدان بنظر الفقيه الذي يستند على الأدلة الشرعية في هذه النازلة في حين يعالج موضوع الكتاب الثاني مسألة ثبوت الهلال(10) في رمضان والأعياد الدينية ، والباحث بنسعيد إذ يقرأ في هذا الكتاب لابن زيدان فهو يبحث عن أسباب ودواعي تأليفه ويذكر الأجواء العلمية والثقافية التي كانت تحيط بهذا الموضوع المختلف فيه من طرف الفقهاء المغاربة.

في القسم الثاني من هذه الدراسة : ابن زيدان المؤرخ : يبحث الأستاذ أحمد التوفيق في شخصية عبد الرحمان ابن زيدان المؤرخ من خلال مبحثين أساسيين:المبحث الأول: عمل ابن زيدان في التاريخ ، والمبحث الثاني : مادة التاريخ عند ابن زيدان. وقبل أن يخوض في صلب هذا الموضوع ، يقدم لعمله بإشارة أو منطلق هي بمثابة عنوان هادف مفادها أن : ابن زيدان مؤرخ وبالتاريخ عرف".

في المبحث الأول : عمل ابن زيدان في التأريخ ، لإثبات هذه الصفة عند مؤرخ الدولة العلوية يلجأ الباحث إلى مجموعة من المعطيات التاريخية المساعدة على تفسير هذه الخصوصية.

1 ـ " أعمال ابن زيدان في سياق كتابة التاريخ عند العرب" : لقد أعطى الباحث هنا نبذة مما يمكن تسميته بالسياق المرجعي العربي الذي تنتظم فيه الكتابة التاريخية عند ابن زيدان، ولعل القصد من ذلك هو العمل على إثبات الحضور التاريخي العربي أو علم التاريخ عند العرب في فكر ابن زيدان ، وما ذكر الباحث لمجموعة

من الأعلام العرب المؤرخين (الطبري / المسعودي / المقدسي / الأزرقي ...) التي يشير إليها ابن زيدان في كتاباته إلا دليل على ذلك الحضور الذي يمكن القول عنه : أنه حضور الاستيعاب والتجاوز.

2 ـ " أعمال ابن زيدان في سياق كتابة التاريخ بالمغرب على العهد العلوي " : تطرق الباحث هنا إلى علم التاريخ كما كان متداولا عند المؤرخين المغاربة أيام الموحدين والمرينيين والسعديين والعلويين بناء على ذكره لبعض النماذج (البيدق / ابن القطان / ابن أبي زرع / ابن غازي / الزياني / الناصري / السملالي / اللجائي / الكردودي/...) التي كان لاستيعاب ابن زيدان لها الدور الأساسي في تشكيل الكتابة التاريخية عنده.

3 ـ " الظروف التي ألف فيها ابن زيدان تواريخه :"لقد وقف الباحث في هذه النقطة على معطيين أساسيين اعتبرهما الركيزة في الصناعة التاريخية عند مؤرخ الدولة العلوية:

1) ـ الاستعمار الديبلوماسي والاستعمار الفعلي : من عهد المولى الحسن الأول إلى عهد مولاي عبد الحفيظ عرف المغرب عدة تحولات تمثلت في تكالب الأطماع الأجنبية عليه وتقهقر(11) وهشاشة البنيات الداخلية للبلاد ، ولاشك أنه كان لهذه التغييرات العميقة تأثيرا مباشرا في فكر ابن زيدان باعتباره كان شاهدا على هذه المرحلة ومساهما في عملية رد الاعتبار للدولة المغربية وإظهار عزتها وأصالتها أمام الخصوم .

2) ـ النسب العلوي يوافق الإرادة العلمية : بحكم انتماء ابن زيدان إلى الأسرة العلوية وتوفره على الإرادة العلمية التي صادفت عنده خزانة من المخطوطات الموروثة، جاءت كتابته في علم التأريخ دسمة ومتنوعة وحاملة لقضية المجتمع : قضية بناء دولة "العز والصولة".

3) ـ " فكرته في التاريخ":يعرض الباحث أحمد التوفيق هنا للفهم الذي حصل لابن زيدان في فهمه لمعنى التاريخ، وهكذا يشير إلى أن أول محاضرة لابن زيدان في هذا الشأن تعود إلى سنة 1925 التي ألقاها في معهد الدراسات العليا(12) بالرباط بدعوة من مدير التعليم جورج هاردي G. Hardy ، كان عنوانها :"مبادئ في علم التاريخ" ، ويلاحظ الباحث أن " معظم المبادئ التي عبر عنها ابن زيدان لاتكون سوى تردادا لأفكار سابقة منقولة عن غيره من المفكرين المعروفين ولاسيما مسكويه وابن خلدون والسخاوي في "الإعلان بالتوبيخ".

4) ـ " أعمال ابن زيدان في كتابة التاريخ": يرى الباحث بناء على نص دال لابن زيدان أن المنظومة التي كانت تقع فيها الكتابة التاريخية عند نقيب الشرفاء في الوعي بالبلدة التي تكون مسقط رأس المؤرخ ومن خلالها الوعي بالدولة ، ودليل ابن زيدان على ذلك قوله :"حيث كان فن التاريخ تقصر الحافظة عن الإحاطة

بإفادته وتنقص خطى القلم عن الإلمام بسائر مهماته ، تعين صـــرف العنايـــة مـــن الإنسان ، لتحديد ماهو الأهم به في طوره الآن ، وذلك شيئان :

ـ أصل تخطيط بلدة أقيم فيها : لأن جاهل تخطيط بلدتـــه يكـــاد ألا يضـــرب فـــي الإنسانية بسهم من فئته.

ـ أحوال دولة هو الآن بين رجالها يكاد يحصل اليأس منه بمعرفة ما لمن بعد عنه ممن تقدم من الأحوال" ولقد تجسدت هذه القناعة"المنهجية والإجرائيـــة" عنـــد ابـــن زيـــدان في عـــمله الكبير حول حاضرة مكناس وكتاباته المتنوعة الأخـــرى عـــن الدولة العلوية.

5) ـ " الوعي بالذاكرة كوسيلة للدفاع عن الشخصية الثقافية" : "يلاحظ البـــاحث في هذه النقطة أن كتابات ابن زيدان التاريخية خاصة تلك التي كانت تعكس عنـــده هموم الدفاع عن " المؤسسة المغربية ،الدولة التاريخية ذات الهيبة" فهمة ابن زيـــدان كانت تتجلى في استيعاب وقائع التاريخ من أجل اســـتثمارها للـــدود عـــن الهويـــة الحضارية للأمة المغربية.

6) ـ مصادر التاريخ عند ابن زيدان :"يرى الباحث أن مصادر ابن زيدان فـــي إنتاج الكتابة التاريخية" هي كتب التاريخ بمعناها العام ووثائق الدولة مـــن رســـائل وظهائر وسجلات وكنانيش ، ووثائق ـ رجال الدولة الذين كانت عادتهم الاحتفـــاظ ببعضها في دورهم حيث يرثها أحفادهم ."بالإضافة إلى بعض المصـــادر الأجنبيـــة التي كان يستفيد منها عن طريق الترجمة ، ويلاحظ الباحث أن تمكن ابن زيدان مـــن هذه المصادر كلها والاعتماد عليها لم تجعله مجرد قائل بل كان صاحب مجهود .

7) ـ "أسلوب ابن زيدان في كتابة التاريخ:"يرى الباحث أن أسلوب ابن زيـــدان " يستند إلى لغة واصفة متينة تحترم ترتيب السرد في حـــيزه الزمنـــي ، الوضـــوح والدقة ، وتتجنب التزيين المخل بالمعنى المقصود".وفي حالة الاستطراد : نقل كـــلام الغير أو تلخيصه،:تعتبر تدخلات ابن زيدان (هنا) في كتبه فاضحة لأفكاره ومواقفـــه (...) يظهر فيها الفقيه والهاوي المطالع للكتب الحديثة في وقته.

8) ـ "وسائل توضيح التاريخ عند ابن زيدان": يلاحظ الباحث أن ابن زيـــدان في تصانيفه التاريخية قد تميز بميزة أساسية عن باقي المؤرخين المغاربة و العـــرب الذين سبقوه ، تتجلى في كونه كان يعتمد إلـــى جـــانب الوثيقـــة المطبوعـــة علـــى صورتها الأصلية يصورها ويضعها بهدف المزيد من التثبت والحيطـــة. بالإضافـــة إلى كونه كان على وعي بأنماط أخرى في توضيح الثقافة التاريخية مثـــل قراءتـــه للنقوش.

9) ـ "إخراج التأليف التاريخي " : ميزة أخرى يلاحظها الباحث فـــي الكتابـــة التاريخية عند ابن زيدان يتعلق الأمر هنا بالنقط والفواصل والفهارس، والكتابة علـــى شكل الفقرات ، وهذا العمل يعتبر عند ابن زيدان \ بحد قول الباحث \ رائدا عمـــن سبقوه أو عاصروه.

في المبحث الثاني من هذه الدراسة: مادة التاريخ عند ابن زيدان : يحاول الباحث أحمد التوفيق رسم مجموعة من القضايا والمواضيع التي شغلت بال ابن زيدان وتدييلها ببعض النصوص الزيدانية التي عولجت القضايا في ضوئها.

1 ــ التاريخ السياسي: في هذه النقطة يعرض الباحث أحمد التوفيق للمادة التاريخية الزيدانية التي تتجلى من خلالها علاقة الحاكم بالمحكوم كما كان يوردها ويفهمها عبد الرحمان ابن زيدان: مواضيع :البيعة / الطاعة / الفتنة / الهيبة/ الضرائب/ ...)، كيف كان السلاطين والنخبة المخزنية يتعاملون مع الرعية والفئات الاجتماعية ذات النفوذ مثل العلماء / الزوايا / شيوخ القبائل ... في حالات الهدنة والفتنة.

ما هو الخطاب السياسي والجهاز المفاهيمي المستعمل مع جميع هذه الفئات الاجتماعية."فالسلطان ليس مستبدا مطلقا ولكنه لا يترك الحبل على الغارب وهو على كل حال يقضي مدة ملكه وهو يدافع عن هيبة السلطة وعن حفظ التراب ورتق الفتوق ومواجهة المكائد وسد الذرائع".

ولمزيد بيان هذه العلاقة السياسية بين الحاكم والمحكوم يورد الباحث مجموعة من النصوص الزيدانية الدالة ، نختار نحن منها نموذجا واحدا يتعلق بمسألة بيعة أهل فاس لمولاي حفيظ : يقول ابن زيدان :"... ولا غرو أن أمير المؤمنين الذي انتظمت بيعته في أعناق المسلمين أجل من صدقت فيه ظنونهم ونياتهم (...) راجين من شريف همته وكريم عنايته أن يلبسهم رداء نعمته (...) ويسعى جهده في رفع ما أضر بهم من الشروط الحادثة في الخزيرات حيث لم توافق الأمة عليها ...".

2 ــ العلائق السياسية للدولة العلوية أو التاريخ الدبلوماسي: يذكر الباحث في هذه النقطة العناية التي بذلها ابن زيدان لإبراز العلاقات السياسية التي أنجزتها الدولة العلوية منذ عهد السلطان المولى إسماعيل إلى عهد السلطان المولى عبد الحفيظ والأهمية التي كانت لهذه العلاقات في بناء نظام المجتمع الاقتصادي والأمني ونورد هنا مقتطفات من بعض النصوص الزيدانية التي جاء بها الباحث : " وغير خاف على من له قلب يعقل به ما لتحسين العلائق بين الدول والأمم من الفوائد الجمة والمنافع التي لا تكاد تدخل تحت حصر ناهيك ما في ذلك من نمو التجارة وجلب الثروة للبلاد والنوم في مهاد الأمن والاطمئنان.."، "وأوفدت إليه (السلطان عبد الحفيظ) فرنسا سفيرها م.رينيو سنة 1327 فوجه إليها سفير ماليته إذ ذاك الحاج محمد المقري (...) وبسبب ذلك دخلت فرنسا فاسا ثم نشرت حمايتها على المغرب ثم تنازل السلطان المذكور".

3 ــ التاريخ العسكري : يعرض الباحث في هذه النقطة لتاريخ النظام العسكري للدولة العلوية كما يصوره المؤرخ عبد الرحمان بن زيدان (نظام العسكر من حيث الأجرة المأكل والمشرب، الآلات الحربية، العمليات العسكرية الداخلية والأجنبيةالحرس السلطاني...) والتطور الذي عرفه هذا النظام من البساطة(13) إلى

القوة إلى تحديث هياكله وبنياته في أواخر القرن19 خاصة مع السلطانين محمد الرابع وابنه السلطان مولاي الحسن الأول، والدور الذي كان يلعبه هذا النظام العسكري في الحفاظ على التراب الوطني وصد الهجومات الخارجية وردع الفتن الداخلية، يقول ابن زيدان في شأن حركات مولاي الحسن الأول : " فكانت جميع حركاته منذ جلس على أريكة ملكه إلى أن لبى داعي مولاه تسع عشرة حركة(...) ودوخ في هذه الحركات الأغوار والأنجاد لإصلاح أحوال الرعية، وإجرائها على الطرق المرضية ، وحسم مواد الفتن والأهوال ، والجد والاجتهاد في استصلاح الأحوال (...) وجبيت من الكل الجبايات واستوفيت حقوق وتبعات وساد الأمن وعم

4 ـ التاريخ الاجتماعي (14) : يحاول الباحث في هذه النقطة بيان رؤية عبد الرحمان ابن زيدان لمسألة النظام الاجتماعي الذي ساد المغرب في عهد الدولة العلوية(التفاوت الاجتماعي / نوع العلاقات بين الناس: مفهومي الخاصة والعامة/ الأوبئة والمجاعات وما ينتج عنها من احتجاجات وفورات اجتماعية...).

ويرى الباحث أن موقف ابن زيدان تجاه هذه الأحداث التي كان يؤرخ لها ويدرسها كان لا يخلو من توتر في " كتابته من جهة ما آل إليه عز الدولة الذي لا يفتأ يذكر به ومن جهة الصدامات مع المجتمع وهو لا يفتأ يبررها ويجد لها وجوها في مراجعه الثابتة ".

وفيما يلي مقتطف من نص حول ثورة الدباغين بفاس أيام تولية مولاي الحسن الأول لابن زيدان (... ثم إن الطالب الملح توجه للفندق من عند نفسه وجلس ليقبض المكس ، فثار الغوغاء وسفلة الأخلاط من الدباغين وتجمهروا وذهبوا لدار الأمين (...) وصمموا على الهجوم على الدار واستولى على ما بها من النفائس والذخائر والأموال واستأسدت الذئاب (...) وهاجت الفتنة بالمدينة ...".

5 ـ التاريخ الديني والقضائي : يحاول الباحث في هذه النقطة عرض نظر ابن زيدان فيما يسمى بالإصلاح الديني والقضائي على عهد الدولة العلوية من حيث الممارسة الدينية وسبل تنظيمها وتطبيقها ، ومن حيث الاختيارات المذهبية وكيفيات تنزيلها وإقناع فئات المجتمع بفائدتها ونجاعتها ، يذكر الباحث هنا نموذجا للاختيارات المذهبية والعقائدية التي كانت تسود المجتمع المغربي على عهد السلطان محمد بن عبد الله ، وفي هذا الصدد يورد ابن زيدان وثيقة للسلطان محمد بن عبد الله حول إصلاح نظام التعليم بالقرويين:"فإنا أمرناهم (مدرسي القرويين) أن لا يدرسوا إلا كتاب الله تعالى بتفسيره وكتاب الخيرات(...) ومن كتب الحديث المسانيد والكتب المستخرجة منها والبخاري ومسلما وغيرها(...) ومن أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة وكتب غلاة الصوفية وكتب القصص فليتعاط ذلك في داره (...) ومن تعاطى ما ذكرنا في المساجد ونالته عقوبة فلا يلوم إلا نفسه".

6 ــ تاريخ العلم والتعليم : يحاول الباحث هنا عرض الكيفية التي أرخ بها ابن زيدان إصلاح الدولة العلوية لأنظمة التعليم ونوع علاقات العلماء بالسلاطين والنخبة المخزنية ، يقول ابن زيدان في بعض اهتماماته بهذا الموضوع:"ومن لطيف ما وقع بمجلسه(المولى رشيد) في بعض الأيام أنهم تكلموا على قواعد الإسلام وأنها خمس ، فقام رجل من حاشية المجلس خامل الذهن،فقال إنها ست.فأنكرعليه الحاضرون، واستجهلوه، فقال:القاعدة السادسة هو السلطان ، إن وجد وجدت وإلا فلا ، فاستظرفه جميع من حضر".

7 ــ تاريخ نظم الدولة : في هذه النقطة يعرض الباحث لمسألة مهمة شغلت ابن زيدان في كتابته(15) التاريخية يتعلق الأمر هنا بنظام الدولة العلوية المغربية "ونظام الدولة هو قبل كل شيء عند ابن زيدان، نمط حياة السلطان وترتيب شؤون قصره وحاشيته الداخلية(ونظام) المعاونين للسلطان في الحكم (ونظام معاملة السلطان) للفئات المختلفة من رعاياه ومن الأجانب أي نظم خارج القصر".

8 ــ التاريخ العمراني : يعرض الباحث في هذه النقطة للطريقة التي تناول بها ابن زيدان التاريخ للمعالم الحضارية في المدن الكبرى مثل مكناس وفاس مفصلا ومدققا في وصف كل معلمة ومآثر تاريخية، وقد أفرد لذلك حيزا مهما في كتاباته مثل (الإتحاف والدرر الفاخرة).

9 ــ أوصاف سلطان : يتناول الباحث في هذه النقطة أوصاف ابن زيدان لسلاطين الدولة العلوية يصف أحوالهم ودقائق التحديات التي واجهتهم، ويقف بشكل مفصل عند السلطان المولى إسماعيل الذي أفرد له مؤلفا خاصا به سماه:"المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف".

10 ــ ترجمة علم من الأعلام : يذكر الباحث في هذه النقطة للطريقة التي كان يتبعها ابن زيدان في الترجمة للأعلام، حيث كان يتبع في هذا العمل ذكر: النسب/ الحال/ الرحلة العلمية ووقتها/ المناصب والخطط التي تصدرها العلم / تفوقه وظهوره / مؤلفاته/ تلامذته ومريدوه/...

في القسم الثالث من هذه الدراسة: ابن زيدان الأديب، يحاول الأستاذ الباحث عباس الجراري مقاربة هذا الموضوع من خلال أربعة مباحث :

المبحث الأول : شعره :من خلال نقطتين أساسيتين، مصادر الشعر عند ابن زيدان ومفهومه للشعر وموقف النقاد منه:يحاول الباحث في النقطة الأولى أن يضع اليد على أهم وأبرز المصادر العربية التي ضمت واحتوت أشعار ابن زيدان الأدبية خاصة في باب المديح النبوي، هي عبارة عن دواوين شعرية مثل :"قوت الأرواح في مديح زين الملاح".

ويذكر الباحث أن بعض أشعار ابن زيدان إن كانت مصنفة في دواوين خاصة فإن أكثرها قد ظل موزعا بين بعض الجرائد مثل جريدة "السعادة" وبعض كتبه

التاريخية ومؤلفاته الأدبية مثل كتاب :"تغيير الأسعار على من عاب الأشعار" كلـــه في الأمداح النبوية، وهذا بيت من بعض مطالع إحدى القصائد":

+ رسول الله مدحك لي شفاء ـ وترياق يزول به العناء

أما فيما يخص النقطة الثانية من هذا المبحث : يرى الباحث أن مفهوم الشعر عنـــد ابن زيدان كان يرتبط "بكل ما يبعث على البهجة والسرور وما صيغ سحرا حـــلالا ولفظا حلوا وكلاما بهيا، وما يفرض على صاحبه القول فينقاد له طائعا وهو مـــالا يتيسر لغير الأذكياء الألباء "يقول ابن زيدان في "الرحلة الزيدانية".

+ ألا فالشعر عندي مستطاب لكل ما يسر له وفـــاء
+ لذلك قد تعاطته الألبا ومن له في الذكا صاح انتمـــاء .

ويرى الباحث عباس الجراري أن تركيز الشاعر ابن زيدان على نظم شـــعر المديح النبوي كان دافعا لبعض النقاد المعاصرين إلى انتقاده خاصة فئـــة العلمـــاء الذين كانت لهم مواقف معارضة(16) لكل الاحتفالات بالمولد النبوي باستثناء البعض الذين كانوا يؤيدون هذا الاتجاه الشعري عند مؤرخ المملكة مثل : الفقيه أحمد بـــن المامون البلغيثي الذي يقول في حق ابن زيدان :

+ وإن كنت في نظم القريض كما أرى وأرضي فخد في مدح خير الورى طرا
+ ففيه فهم وامدح وقل ما تشائـــــه ولا تخشى أن ترمى بلوم ولا إطـــرا

في المبحث الثاني ، مسامراته ورسائله: يعرض فيه الباحث أولا إلى مجموعة مـــن المحاضرات العلمية التي كان يلقيها ابن زيدان في مواضيع مختلفة،والتـــي كـــانت الأصل ـ بحد تعبير أحمد التوفيق (17) في كثير من الأحيان لكتب ضخمـــة قائمـــة بذاتها مثل كتاب:"العلائق السياسية للدولة المغربية" ومثل كتاب:"العز والصولة فـــي نظام الدولة".

وفي هذا السياق نذكر نماذج من تلك المحاضرات التي عرض لـــها البـــاحث بحسب التاريخ الذي قدمت فيه :

1) ـ "محاضرة الأكياس بملخص تاريخ مكناس"تحدث فيها ـ حســـب البـــاحث ـ على أهمية التاريخ وعن جزء من حاضرة مكناس.

2) ـ "مبادئ علم التاريخ" ألقاها سنة 1924 بمعهد الدروس العليا بالرباط .

3) ـ " محاضرة في الأخلاق" حررت سنة 1932م، ومما جـــاء فيـــها : قولــه:"إن مجموع التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل هو مـــا يدعـــوه علمـــاء العمـــران والاجتماع بعلم الأخلاق، وهو من أنواع الحكمة العملية(...) وهو ما عناه صـــاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم بقوله :"أدبني ربي فأحسن تأديبي".

أما فيما يخص رسائله ، يذكر الباحث عباس الجراري أنـها مجموعـة من الرسائل التي كان ابن زيدان يتبادلها مع (أصدقائه) في شؤون أخوية وعلمية"ومن تأمل بعض هذه الرسائل يتبين أن ابن زيدان كان يعني في كتابتها بفنية في التعبير تقوم على المحسنات البديعية، من جناس وسجع وطباق: ومن (النماذج التي) ذكرها الباحث نقتطف جزءا من رسالة بعثها ابن زيدان إلى الشيخ ماء العينين : ومما جاء فيها قوله :" الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه (...) أما بعد ، فإن رابطة العلم والأدب وصفاء الود المؤسس على تقوى من الله ورضوان تراث توارثه الأبناء عن الآباء ، حذا بي إلى مفاتحة جنابكم الملحوظ بعين الإكبار والإجلال بالمراسلة ...".

في المبحث الثالث : تأليفه : يعرض الباحث لأهم مؤلفات ابن زيدان التي تحتوي على نصوص في الأدب "كالتعريف بالأعلام وإيراد النصوص الشعرية والنثرية : مثل كتاب:"اليمن الوافر الوفي في امتداح الجناب اليوسفي" يذكر الباحث أن هذا المؤلف هو عبارة عن ديوان يقع في جزعين كبيرين جمع فيه القصائد التي قيلت في مدح السلطان المولى يوسف بمناسبات مختلفة ولا سيما ذكرى المولد النبوي" والمجموع في حقيقته يعكس واقع الحياة الشعرية في عهد المولى يوسف إذ جاء استعراضا لقصائد الشعراء المعروفين وغير المعروفين نحو السبعين" منهم على سبيل المثال لا الحصر : محمد بوجندار/ عبد الله الفاسي / عبد القادر بن سودة ...

وكتاب :"تغيير الأسعار على من عاب الأشعار :"وهو في الحقيقة ديوان جمعه للرد على بعض خصومه ومنتقدي توجهه الشعري .

وكتاب:"إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس " الذي يضم عدة تراجم للأعلام الأدباء وعدة قصائد شعرية .

وكتاب :"العقود الزبرجدية في الرحلة السلطانية المحمدية" وهو كتاب خصه ابن زيدان للحديث عن رحلة السلطان محمد بن يوسف.

في المبحث الرابع : مكتبته وناديه : في حديثه عن مكتبة ابن زيدان يشير عباس الجراري إلى نص مهم لأبيه العلامة عبد الله الجراري في رحلته :"قرة العيون من سبعة أيام في مكناسة الزيتون وجارتها زرهون "يصف فيه مكتبة مؤرخ الدولة العلوية :"أطلعني عليها فلم ألبث أن دهشت من عظمتها ولطيف نظامها وطفقت وقته أتصفح فهرسها النظامي الذي لا تكاد تميزه عن برامج المكاتب العلمية الجديدة للحكومة وغيرها. وزادها رونقا وبهجة ما علق بحيطانها من جليل الصور الأثرية للملوك وعظماء الأمة إزاء ظهائر شريفة تعلوها مسحة المهابة في خطها البديع وتراجمها الذهبية التي نالت حظها الأوفر من رقة البداعة العربية الأندلسية ، فكنت أستطلع بزائد الإعجاب على دخائر وغريب مخطوطاتها". ويشير صاحب الرحلة المكناسية أن زوار المكتبة لم يكن يقتصر على

الباحثين المغاربة فحسب بل إن بعض الشخصيات الغربية المهتمة كانت تزور المكتبة كذلك مثل المستشرق الألماني أتو ايبريزل.

يقول ابن زيدان في إحدى أشعاره :

+ إن قيل ما لذة الدنيا بأجمعها مدى حياتي مما ألفت من كتب
+ وما اقتنيت من الأوراق أجمعها أنفقت ريعان عمري فيها مع نشب

وفي الحديث عن نادي ابن زيدان يشير الباحث إلى أن منزل النقيب كان قبلة لجميع الزوار خاصة أولئك الأعلام العلماء وفطاحل الأدباء والشعراء ، وفي هذا السياق يسوق الباحث نصا دالا للعالم أحمد سكيرج يتحدث فيه عن زيارته لبيت النقيب الشريف مولاي الكبير :"...جلسنا مع سيادة النقيب بروضة الأنيق أياما ونحن في تمتع بالنعيم الذي انتعشت به الأرواح والأشباح ، مع العكوف على دراسة الأدب مذاكرة ومطالعة ومحاضرة ومناظرة في مسائل علمية فرعية وأصولية ، معه ومع زائريه الذين كانوا يتواردون علينا حين سمعوا بقدومي من أعيان ونجباء وعلماء وأدباء. ولا عجب إذا قلت أن محل سيدنا النقيب كعبة القصاد ومنهل الوراد ، لا يخلو من زائرين في غالب الأوقات".

ونظرا للمكانة الكبيرة التي كانت لابن زيدان في قلوب علماء المغرب وأدبائه فقد كان مجلسه العلمي لا يخلو من أشعار المديح إزاءه ، تكرم شخصيته وتنوه بخصاله وعلمه، ومن ذلك مثلا قول عبد الله القباج في مطلع إحدى قصائده يمدح فيها النقيب :

+ لولا وجود علاك في مكناس ما جئتها وتركت كل أناس

يستنتج الباحث عباس الجراري في دراسته الأدبية لابن زيدان أن الرجل رغم كونه كان متشبثا بأصول ثقافته المغربية التقليدية والعض عليها بالنواجد ، فهو في نفس الوقت كان يتفهم ظروف المغرب الجديدة (من العز والصولة إلى الضعف والانهيار) يحاول أن ينسجم معها ويتفاعل مع معطياتها بالدرجة التي تجعله يكسب إشعاعا عميقا لثقافته ووعيا ذكيا لكل رياح التجديد والتحديث.